في اللاهوت الدفاعي حاضراً

بقلم المطران سابا (اسبر)

يتوزّع علم اللاهوت على حقول عدّة. فالتعليم الإيماني المختصّ بالكتاب المقدّس يُسمى لاهوتاً كتابياً، والمختصّ بالعقيدة لاهوتاً عقائدياً أو عقدياً وهكذا. أمّا التعليم الإيماني الذي يتصدّى لمفاهيم أو تعاليم إيمانية خاطئة، أو يواجه البدع والهرطقات، أو يوضح ماهية وجوهر الإيمان المستقيم فيُسمى لاهوتاً دفاعياً.

عرفت الكنيسة المسيحية اللاهوت الدفاعي منذ بدء تأسيسها. فمنذ العصر الرسولي، ومع القرن الثاني الميلادي بخاصّةٍ، وجدت المسيحية نفسها في مواجهة جبهات عديدة كالديانات السائدة والبدع والهرطقات والانحرافات الإيمانية والأخلاق المتعارضة مع الإنجيل والاتهامات الكاذبة، ممّا اضطّرها تالياً إلى تبيان التعليم القويم والدفاع عن الإيمان المسيحي وإظهاره على حقيقته. كما أنّ طبيعة المسيحية التبشيرية دفعت إلى شرح الإيمان المسيحي على ضوء المفاهيم الدينية والفلسفية السائدة. هذا ما فعله بولس الرسول الذي كان "يخاطب اليهود والمتعّبدين في المجمع، ومن يلقاهم كلّ يوم في ساحة المدينة". لنتذكّر، على سبيل المثال، كيف خاطب أهل أثينا واستشهد ببعض شعرائهم (أع ١٧: ١٧).

لعب العديد من المفكّرين المسيحيين دوراً بارزاً في تطوير اللاهوت الدفاعي. تقديم الإيمان المسيحي للعالم كان أحد أسباب كتابة العهد الجديد، وهو ما يفسّر أسباب وجود أربع نسخ لبشارة المسيح؛ حيث اهتمّت كلّ نسخة بتقديم هذه البشارة لفئة من الناس مخاطبة إيّاهم بحسب ثقافتهم. فمتّى الإنجيلي، الذي وجّه كتابه إلى المسيحيين من أصل يهودي، أورد استشهادات كثيرة من العهد القديم كي يثبت تحقّقها في يسوع. أمّا مرقس، الذي وجّهه إلى مسيحيي مدينة روما، فلم يذكر شيئاً من العهد القديم لأنّهم لا يعرفونه، بل اهتّم بإظهار قوّة يسوع ومعجزاته أكثر من تعليمه، وهو ما يتناسب مع فهم الرومان آنذاك للعلاقة القائمة بين الآلهة والقوة. أمّا رسائل بولس الرسول فتَحْفَل بشروح وأجوبة على أسئلة كثيرة أو ممارسات خاطئة كانت تحصل في الكنائس الناشئة حديثاً.

سرعان ما بدأ العالم يهاجم الإيمان الجديد، مشوّهاً صورته، أو فاهماً إيّاه بطريقة خاطئة. كذلك لم يوفَّق كثيرون في مسعاهم إلى تقديم الإيمان الجديد وشرحه، فوقعوا في الهرطقات وتأثروا بالفلسفات السائدة، ما دعا إلى تفنيد هذه التعاليم الخاطئة وحفظ الإيمان المسيحي من الهرطقات والبدع. هذا ما دعا إلى انعقاد المجمع الرسولي الأوّل (أع ١٥)، الذي واجه مسألة مطالبة المهتدين من الوثنية إلى المسيحية بتطبيق ناموس موسى أوّلاً. مذ ذاك صار انعقاد المجمع تقليداً في الكنيسة المسيحية، وعُرف أنّ الكنيسة مجمعية (سينودُسية) والكلمة من اليونانية وتعني "السير معاً."

لعبت الحاجة إلى تثبيت إيمان المسيحيين، ودعوة غير المسيحيين إلى الدخول في الإيمان المسيحي، والتعاطي مع الفلسفات السائدة والتهم التي أُلصقت بالمسيحيين وعباداتهم، دوراً مهمّاً في ازدهار اللاهوت الدفاعي، والدخول في حوار مع الآخرين.

سُمي اللاهوتيون الذين كتبوا، لاهوتاً دفاعياً، بدءاً من القرن الثاني، بالآباء المدافعين، مثل يوستينوس الفيلسوف وأريستيذس وكوارتوس وأثيناغوراس وأوريجانوس. ولم يخلو زمنٌ من هؤلاء المدافعين من بعد انتشار المسيحية في أرجاء المسكونة، وحاجتها إلى مخاطبة العالم الذي تعيش فيه والحوار معه وتثبيت المسيحيين في إيمانهم.

عمل المسيحيون بكلمة بطرس الرسول: "كونوا دائماً مستعدين لأن تقّدموا جواباً مقنعاً لكلّ من يسألكم عن سبب الرجاء الذي في داخلكم" (١ بط ٣:١٥). لم يتردّدوا أو ينغلقوا على أنفسهم أو يخافوا من مواجهة الآخرين والدخول في حوار معهم أو من در .اسة الثقافة العالمية، واكتساب مهارة استخدامها في تقديم الإيمان المسيحي، أو تطويعها للتعبير عنه بشكل دقيق ومفهوم من قِبَل الذين يقدِّم لهم آباء الكنيسة إيمانَهم المسيحي.

استعان الدفاعيون المسيحيون بالثقافة السائدة، فاستخدموا التاريخ وأدّلته، والفلسفة وحججها، والعلوم ونظرياتها، والوعظ والخطابة والحوار، وغيرها مما استطاعوا إليه سبيلاً. لعلّ كتابات س. إس. لويس في بريطانيا القرن العشرين شاهد معاصر معروف جيداً لدى أبناء زمننا.

طالما أنّ الكنيسة موجودة وكذلك العالم فسيستمر اللاهوت الدفاعي في الوجود. فواجب الكنيسة أن تحفظ الإيمان وتبّشر به وتثّبت المؤمنين فيه وتحاور المشكّكين به والمعادين له.

في زمننا الحالي الذي سقطت فيه الحدود وصار العالم قرية الكترونية واحدة، صارت التحديات شبه واحدة في كلّ العالم، ولكن على تفاوت شديد أو ضعيف بين منطقة وأخرى. هذا ما جعل الكنائس بحاجة إلى تبادل الخبرات في شأن بعض التحديات الإيمانية والأخلاقية بخاصّة.

يُلاحَظ حالياً، في معظم الديانات، حركةُ انكفاء عن مواجهة العالم الحالي والاكتفاء بممارسة الإيمان وعيشه وعرضه باجترار ما وصلنا في التراث. ثمّة جماعات تتكّون هنا وهناك تقرأ تراث الكنيسة حرفياً، خارج سياقه، وترفض الحوار مع العلوم والثقافات الأخرى. فيما العالم يجري فينا ومن دوننا، باتت أعداد هائلة من الناس والشبيبة بخاصّة بحاجةٍ إلى خطاب وشرح الإيمان باستخدام لغتهم وثقافتهم. وهو ما كان متوفراً في الكنيسة دائماً. وهذا ما اتّبعه آباء الكنيسة الذين يتعّرضون اليوم إلى تشويه تعاليمهم من قِبل الذين ينادون بهم أيضاً.

ثمّة أسئلة، في هذا المجال، لا بد من طرحها. لماذا الخوف من الحداثة وما فيها إلى درجة مقاطعة الآخر الذي لا يقول قولنا؟ لماذا نستبدل دونما وعي مبدأ "الكتاب وحده" بمبدأ "الآباء وحدهم"، ونقع تالياً في التفسير الحرفي الذي لا يأخذ بالاعتبار الظرف والدافع والحاجة الذي صاغ تعليماً محدداً؟ لماذا نتصرّف وكأنّ الروح القدس قد توقف عن العمل في الكنيسة؟ لماذا لا نتعلّم من آباء الكنيسة الكبار معرفة ثقافة زمننا جيداً، حتّى نحاورها وندافع عن إيماننا ونبّشر به، ممتلكين الأدوات التي تساعد الآخرين على أن يفهموه على حقيقته؟ لماذا، على سبيل المثال لا الحصر، استطاع بولس الرسول الاستشهاد بشعراء وثنيين في خطبته في أثينا؟ ولماذا طوّع الآباء القدّيسون مفهوم "من نفس الجوهر" (أوموأوسيوس) ليخدم الإيمان المسيحي، بينما يرفض كثيرون قراءات إيمانية معاصرة على الرغم من أمانتها للعقيدة؟ وأخيراً، لماذا لا يعرض بعضهم اليوم الإيمان إلا بمقارنة هجومية على الآخرين.

في عصر الحوار، لماذا لا نقبل الحوار؟ سؤال برسم جميع المؤمنين.